إثيوبيا في المجهول

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

من الصعب التكهّن بمستقبل بلد مهمّ مثل إثيوبيا يعتبر من بين أكثر البلدان الأفريقيّة عراقة. الأمر الوحيد الأكيد أن إثيوبيا مقبلة على تطورات في غاية الأهمّية والخطورة تهدّد بين ما تهدّد وحدتها من جهة واستمرار دور المركز الذي يحكم منه البلد من جهة أخرى. المعني بالمركز العاصمة أديس أبابا المهدّدة بالسقوط قريبا في ضوء زحف الميليشيات الآتية من تيغراي وغيرها من المناطق. ليس معروفا الدور الذي ستلعبه أديس أبابا في إدارة شؤون بلد في حال دخول إثيوبيا مرحلة جديدة في ظلّ تجاذبات بين الأعراق المختلفة التي يتشكل منها بلد فيه 80 لغة يتحدّث بها سكانه الذين وصل عددهم في العام 2020 إلى 115 مليون نسمة.

من الآن، يصلح طرح سؤال يتعلّق بمدى تأثير تشظي إثيوبيا، على غرار تشظي الصومال واليمن، على منطقة القرن الأفريقي كلّها.

تكفي إشارتان للتأكد من مدى خطورة الوضع في إثيوبيا. الأولى دعوة الإدارة الأميركية كل مواطنيها إلى مغادرة إثيوبيا "في أسرع وقت" والأخرى دعوة الجيش الإثيوبي جنوده السابقين إلى تسجيل أنفسهم لدى السلطات المعنيّة والمشاركة في العمليات العسكرية.

يعطي فكرة عن خطورة الوضع أيضا أنّ تسعة فصائل مناهضة للحكومة المركزية في إثيوبيا شكلت تحالفا من أجل زيادة الضغط على رئيس الوزراء آبي أحمد كي يقبل التخلي عن السلطة. يحدث ذلك في ظلّ زحف لقوات متمردة على العاصمة. ليس ما يشير إلى أن القوات الحكومية قادرة على وقف تقدّم المتمردين الذين يعملون تحت مظلّة تحالف جديد سمّي "الجبهة المتحدة للقوات الفيدرالية الإثيوبية". يسعى هذا التحالف لـ"إقامة ترتيب انتقالي في إثيوبيا" حتى يتمكن رئيس الوزراء من الرحيل في أسرع وقت ممكن، حسب ما قال يوهانيس أبرهة، أحد المنظمين لهذا التحالف، وهو من مجموعة تيغراي. اعتبر أبرهة أن "الخطوة التالية ستكون، بالطبع، عقد اجتماعات والتواصل مع الدول والدبلوماسيين والجهات الفاعلة الدولية في إثيوبيا وخارجها".

إثيوبيا فقدت وحدتها عندما استقلت إريتريا وخسرت أي واجهة على البحر مع هذا الاستقلال وكل ما يمكن قوله الآن أن إثيوبيا دخلت مرحلة المجهول في منطقة تقف على كف عفريت

الغريب في الأمر أن التحالف يضمّ جماعات من عرق الأورومو الذي ينتمي إليه رئيس الوزراء نفسه، وهو أوّل ممثل للأورومو يصل إلى الموقع السياسي الأهمّ في إثيوبيا في آذار – مارس من العام 2018.

من الواضح أنّ ما تشهده إثيوبيا يعكس فشلا لآبي أحمد في إدارة البلد منذ أصبح رئيسا للوزراء في آذار – مارس 2018. هناك آمال كثيرة عُلّقت عليه، خصوصا بعدما سعى لرأب الصدع مع إريتريا بعد حرب مكلفة بشريا وماديا بين البلدين في العامين 1998 و2000. كشفت تلك الحرب وقتذاك العقم السياسي في إريتريا التي مازال يحكمها أسياس أفورقي وفي إثيوبيا نفسها التي كانت في عهدة رئيس الوزراء الراحل ملس زيناوي.

تكمن مشكلة إثيوبيا حيث فشل آبي أحمد فشلا ذريعا في إقامة نظام مختلف وعصري في غياب الحكومة القادرة على إبقاء البلد موحّدا.

لم يستطع آبي أحمد التعاطي مع مختلف المكونات في البلد. في الواقع لم يمتلك الأدوات التي تسمح له بأن يكون دكتاتورا آخر. لجأ في السنتين الماضيتين إلى القمع، لكنّ ذلك لم يحل أي مشكلة من أيّ نوع، خصوصا بعدما اصطدم بالتمرد في تيغراي. ما لا يمكن تجاهله أن جماعة تيغراي سيطرت على السلطة بعد خروج منغيستو هايلي مريام في العام 1991.

لماذا تبدو إثيوبيا مهدّدة بمرحلة طويلة من الاضطرابات؟ لا يمكن تحميل آبي أحمد وحده كلّ المسؤولية. من المفيد العودة إلى المراحل التي مرّ فيها البلد منذ العام 1974 تاريخ الانقلاب العسكري على الإمبراطور هيلا سيلاسي الذي لم يكن شخصيّة سياسية فحسب بل كان أكثر من ذلك بكثير كشخصية تمتلك هالة دينية في الوقت ذاته في ضوء الجذور التاريخيّة للعرش.

جاء التخلّص من هيلا سيلاسي، عن طريق مجموعة من الضباط، في ظلّ الحرب الباردة. كان الاتحاد السوفييتي يبحث عن موقع مهمّ في القرن الأفريقي. تولى تأمين هذا الموقع منغيستو هايلي مريم الرجل القوي في اللجنة العسكريّة التي تولت السلطة بعد انهيار النظام الإمبراطوري. تخلّص منغيستو، الذي كان ينتمي إلى العرق الأمهري، باكرا من أمان عندوم رئيس اللجنة العسكرية التي سميت "الدرق". لعب أمان عندوم، الضابط المحترف، الدور الأساسي في ترقية منغيستو إلى رتبة عريف وذلك عندما كان يعمل في مكتبه!

كان أمان عندوم إريتريا وكان وجوده على رأس اللجنة العسكرية يرمز إلى وحدة إثيوبيا التي كانت إريتريا جزءا منها. تابع منغيستو مسيرته نحو الاستحواذ على كلّ السلطة. تخلّص لاحقا من ضابط كبير آخر هو تيفيري بنتي في العام 1977 وما لبث بعد ذلك أن تحوّل إلى عميل سوفييتي معتمد بعد حرب أوغادين بين إثيوبيا والصومال في العامين 1977 و1978. انحاز الاتحاد السوفييتي كلّيا إلى إثيوبيا في تلك الحرب وربح الجائزة الكبرى بعدما حولها إلى حليف معتمد في المنطقة على حساب الصومال. لم يسقط منغيستو إلّا في العام 1991. ترافق سقوطه ولجوئه إلى زيمبابوي حيث توفّي... مع انهيار الاتحاد السوفييتي.

مع خروج منغيستو من أديس أبابا، بوساطة إسرائيلية مكافأة له على تهريب الفالاشا إلى إسرائيل، استقلت إريتريا بعد استفتاء شعبي أشرفت عليه الأمم المتحدة.

تفتقر إثيوبيا إلى رجل قوي. فقدت وحدتها، عندما استقلّت إريتريا، وخسرت أي واجهة على البحر مع حصول هذا الاستقلال. بات كلّ ما يمكن قوله الآن أنّ إثيوبيا دخلت مرحلة المجهول في منطقة تقف كلّها على كف عفريت، خصوصا أن مستقبل السودان يبدو غامضا، كذلك مستقبل إريتريا نفسها التي تبدو متماسكة في ظلّ النظام الحديدي الذي أقامه أسياس أفورقي. ليست إثيوبيا سوى جزء من عالم يتغيّر. يتغيّر سريعا، خصوصا على ضفتي البحر الأحمر في منطقة القرن الأفريقي.

القاهرة لن تتخلى عن صخبها

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

يعتقد من يتابعون المعلومات المتداولة حول قرب انتقال إدارة الحكم في مصر إلى العاصمة الإدارية قبل نهاية العام الجاري، أن القاهرة ستفقد جزءا كبيرا من صخبها المعتاد، وهو اعتقاد غير دقيق، لأن عملية الانتقال تقتصر على حفنة من المؤسسات والوزراء وكبار المسؤولين والموظفين، بينما تظل القاهرة عامرة بناسها وأهلها ومن تأقلموا مع ضجيجها وأدمنوه وربما وجدوا فيه مزايا يفتقدونها في عواصم عدة.

ظل صديق فلسطيني يردد أنه يزور مصر باستمرار للاستمتاع بالسهر على المقاهي في ليالي وسط البلد بالقاهرة، وحزن عندما علم بتشييد العاصمة الإدارية والتجهيز لافتتاحها قريبا، وتصور أن نقل إدارة الحكم يفقده أهم عنصر جذب دفعه دوما لزيارة القاهرة منذ سنوات، وأن الزحام الذي يتلذذ به واعتاد عليه في كثير من شوارعها سوف يتراجع ما جعله يفكر في الامتناع عن حرصه على زيارة القاهرة.

يضج البعض من سكان العاصمة المصرية من كثافة الزحام والضوضاء والجلوس على المقاهي حتى الساعات الأولى من الصباح، بينما تجد شريحة من الأشقاء العرب في كل ذلك وسائل جذب نادرة، وهي شريحة بات يزعجها انتقال مؤسسات الحكم من القاهرة القديمة، على اعتبار أن مركز الصخب وجوهره يمكن أن يصاب بالسكتة الدماغية، وقد يستغرق تبلور ملامحه في العاصمة الإدارية العشرات من السنين.

احتاجت القاهرة إلى وقت طويل لتظهر بالصورة الصاخبة التي تبغضها غالبية سكانها ويدمنها سكان ما يعرف بـ"مدن الصمت العربية"، وهي المدن التي تستيقظ في توقيتات معينة وتنام كذلك، فمن يشاهدون بعض الأفلام المصرية حتى أواخر الستينات من القرن الماضي وأفلام هذه الأيام، ويقارنون بين شوارع القاهرة زمان والآن، يتساءلون كيف وصلت هذه المدينة الكبيرة إلى حافة الهاوية بسبب كثرة الزحام؟

حزن الصديق الفلسطيني لأن مركز الثقل الإداري سينتقل إلى العاصمة الإدارية التي سوف يستيقظ سكانها بحساب وينامون كذلك، أي مدينة منزوعة الدسم الشعبي والعشوائية، كما أن وسط القاهرة يخشى أن يفقد بريقه تدريجيا لأن نسبة كبيرة ممن يمنحونه طعما للسهر في لياليه قد يذهبون بعيدا عنه.

طمأنت الصديق على شغفه بالصخب ونواميسه، وقلت له إن الحكومة المصرية خططت لتكون العاصمة الإدارية مدينة حضارية خالية من الزحام وتتناسب الحياة فيها مع معايير النظافة والبيئة الصحية وقامت بتدريب مجموعات كبيرة من الموظفين المرشحين للانتقال إليها ولن تتخلى عن الميزة التي جعلته وغيره يغرمون بها، لأن النخبة التي تدير الحكم من العاصمة الإدارية ومن يعاونونها لهم أماكنهم الهادئة.

قد يكون الرجل ارتاح للإجابة الخاصة بأن القاهرة القديمة لن تكف عن السهر، الذي يجعله يواظب على زيارتها، لكن لم يكن مطمئنا إلى أن العاصمة الإدارية سوف تحافظ على أناقتها وقدرتها على حماية الحيوية الرقمية التي تريد الحكومة أن تكون شعارا لها.

يبدو هذا الشعور قاسما مشتركا بين عموم المصريين الذين يتابعون أنباء انتقال مؤسسات الدولة إلى العاصمة الإدارية قريبا، ويخشون أن تتم الخطوة دون استعدادات كاملة، أو لمجرد تحقيق هدف دعائي يتناسب مع شعار الجمهورية الجديدة الذي رفعته وسائل الإعلام المصرية، إذ أعلن أكثر من مرة عن قرب الانتقال إليها وتم التأجيل بلا تقديم مبررات، بما يشي بوجود عقبات أو أن الانتقال لم تكتمل أركانه الرئيسية.

عندما أعلن الرئيس عبدالفتاح السيسي عن مشروع العاصمة كان يريد الإيحاء بأن هناك دولة عصرية تولد في مصر وهو ما ظهرت معالمه مع شعار الجمهورية الجديدة الذي بدأ يتردد في أركان المحروسة مؤخرا

جاء الإعلان الأخير بممارسة الحكومة مهامها الجديدة قبل نهاية العام مصحوبا بإشارات تفيد بعدم جاهزية المدينة لاستقبال كل مؤسسات الحكم، ما جعل البعض يخشون أن يكون هناك استعجال أو عراقيل لا تؤدي للحصول على النتيجة المطلوبة، فالخطوة تمثل قفزة كبيرة، وما لم تكن تمثل إضافة مادية ومعنوية للنظام الحاكم قد تخصم من مؤسساته التي يمكن أن تنتقل ومعها بيروقراطيتها العتيدة.

ليس كل البيروقراطية تحمل شرورا للدولة، لكن المشكلة أن التمسك بها حرفيا يفقد العاصمة الإدارية رونقها الحضاري وبريقها السياسي، فعدم تأهيل البشر قبل الحجر أو بالتوازي ينقل أمراض القاهرة القديمة المزمنة إليها، وما تنطوي عليه من معوقات تسببت في خلق صورة سلبية عن عاصمة الدولة المصرية.

عندما أعلن الرئيس عبدالفتاح السيسي عن مشروع العاصمة كان يريد الإيحاء بأن هناك دولة عصرية تولد في مصر، وهو ما ظهرت معالمه بوضوح مع شعار أو صك الجمهورية الجديدة الذي بدأ يتردد في أركان المحروسة مؤخرا، متوافقا مع تزايد الحديث عن قرب تنفيذ عملية انتقال إدارة الحكم إلى مقر العاصمة الإدارية في شرق القاهرة، وما تحمله الخطوة من تجليات في مناخ مختلفة للحياة.

تريد الحكومة أن تتخلى العاصمة الجديدة عن العادات السيئة التي ترسخت في القاهرة القديمة، وتعمل بجدية على عدم انتقال عيوبها، ولذلك لم تبذل جهدا في تصويب أخطاء الثانية وتركتها ترزح في صخبها ومن يستمتعون به مثل صديقنا الفلسطيني، وقررت الشروع في بناء هياكل جديدة بكل ما تحمله من رمزية سياسية.

إذا لم تأت هذه الهياكل على مستوى الرهانات الحضارية التي صدرتها الأجهزة الرسمية، فإن المشروع سوف يمثل إخفاقا سياسيا واقتصادية واجتماعيا أيضا، وهو ما يفسر التردد في الانتقال قبل أن تكتمل البنية الأساسية، فالكثير من مؤسسات إدارة الحكم لا تزال بحاجة للمزيد من التجهيزات.

كما أن عملية توطين مجموعة كبيرة من الموظفين داخل العاصمة، بالقرب من مقار عملهم الجديد، يواجه مأزقا اقتصاديا، حيث لا تستطيع فئة منهم تحمل التكاليف الباهظة للسكن هناك، ولن تتمكن فئة أخرى من تحمل متاعب الانتقال من سكنها القديم إلى مقر عملها الجديد، والذي يبعد عن وسط القاهرة نحو ستين كيلومترا.

هذه واحدة من المعاناة التي تواجهها الحكومة وتبحث عن حل لها، فقد تحولت العاصمة الإدارية إلى واجهة للاستثمار من قبل بعض رجال الأعمال، ومكانا لاستقطاب شريحة من الأثرياء للحصول على مساكن فاخرة بها، ما يحولها من مدينة لإدارة الحكم إلى ما يشبه المنتجع، لتضاف إلى قافلة طويلة من المنتجعات التي تملأ مصر حاليا، وتقطنها صفوة أو كريمة المجتمع من ذوي الوفرة الاقتصادية.

لن تتخلى القاهرة القديمة عن صخبها، لأن العاصمة الإدارية التي لا زالت تبحث عن اسم تجاري أو علامة سياسية لها حريصة على أن تحافظ على الهدوء والأمن والاستقرار والتخلص من أمراض العاصمة التقليدية، والذي كان أحد دوافع التخطيط لها، من هنا أطمئن الصديق العربي أنه لن يخسر شغفه المستمر بصخب القاهرة.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk